

تفسير البحر المحيط

@ 355 كذا وكذا . قال ابن عطية : وقوله مد الأرض ، يقتضي أنها بسيطة لا كرة ، وهذا هو ظاهر الشريعة . قال أبو عبد الله الداراني : ثبت بالدليل أن الأرض كرة ، ولا ينافي ذلك قوله : مد الأرض ، وذلك أن الأرض جسم عظيم . والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان قطعة منها تشاهد كالسطح ، والتفاوت بينه وبين السطح لا يحصل إلا في علم الله تعالى . ألا ترى أنه قال : { وَالْجِبَالُ أَوَّاتٌ كَأَنَّهِنَّ يَأْسِرْنَ سُبْحَانَ اللَّهِ ذِكْرَهُمْ لَهُمْ لَيْلٌ وَمَنَاجٍ أَلْفٌ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } . وأيضا إنما ذكر مد الأرض ليستدل به على وجود الصانع ، وكونها مجتمعة تحت البيت أمر غير مشاهد ولا محسوس ، فلا يمكن الاستدلال به على وجود الصانع . فتأويل مد الأرض أنه جعلها بمقدار معين ، وكونها تقبل الزيادة والنقص أمر جائز ممكن في نفسه ، فالاختصاص بذلك المقدار المعين لا بد أن يكون بتخصيص مخصص ، وتقدير مقدر ، وبهذا يحصل الاستدلال على وجود الصانع انتهى . ملخصاً . وقال أبو بكر الأصبغ : المد البسط إلى ما لا يرى منتهاه ، فالمعنى : جعل الأرض حجماً يسيراً لا يقع البصر على منتهاه ، فإن الأرض لو كانت أصغر حجماً مما هي الآن عليه لما كمل الانتفاع به انتهى . وهذا الذي ذكره من أنها لو كانت أصغر إلى آخره غير مسلم ، لأن المنتفع به من الأرض المعمور ، والمعمور أقل من غير المعمور بكثير . فلو أراد تعالى أن يجعلها مقدار المعمور المنتفع به لم يكن ذلك ممتنعاً ، فتحصل في قوله : مد الأرض ثلاث تأويلات بسطها بعد أن كانت مجتمعة ، واختصاصها بمقدار معين وجعل حجمها كبيراً لا يرى منتهاه . والرواسي الثوابت ، ومنه قول الشاعر : % (به خالداً ما يرمن وهامد % . وأشعت أرسته الوليدة بالقهر .) % .

والمعنى : جبالاتاً رواسي ، وفواعل الوصف لا يطرد إلا في الإناث ، إلا أن جمع التكسير من المذكر الذي لا يعقل يجري مجرى جمع الإناث . وأيضاً فقد غلب على الجبال وصفها بالرواسي ، وصارت الصفة تعني عن الموصوف ، فجمع جمع الإسم كحائط وحوائط وكاهل وكواهل . وقيل : رواسي جمع راسية ، والهاء للمبالغة ، وهو وصف الجبل . كانت الأرض مضطربة فثقلها الله بالجبال في أحيازها فزال اضطرابها ، والاستدلال بوجود الجبال على وجود الصانع القادر الحكيم . قيل : من جهة أن طبيعة الأرض واحدة ، فحصول الجبل في بعض جوانبها دون بعض لا بد أن يكون بتخليق قادر حكيم ، ومن جهة ما يحصل منها من المعادن الجوهريّة والرخامية وغيرها كالنفط والكبريت يكون الجبل واحداً في الطبع ، وتأثير الشمس واحد دليل على أن

ذلك بتقدير قاد قاهر متعالى عن مشابهة الممكنات ، ومن جهة تولد الأنهار منها . وقيل :
وذلك لأنّ الجبل جسم صلب ، ويتصاعد بخاره من قعر الأرض إليه ويحتب هناك ، فلا يزال يتكامل
فيه فيحصل بسببه مياه كثيرة ، فلقوتها تشق وتخرج وتسيل على وجه الأرض ، ولهذا في أكثر
الأمر إذا ذكر أنّ تعالى الجبال ذكر الأنهار كهذه الآية . وكقوله : { وَجَعَلْنَا فِيهَا
رَوَاسِيََ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا } { وَأَلْقَيْنَا فِي الْأَرْضِ
رَوَاسِيََ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْزَهَارًا } فقال المفسرون : الأنهار المياه الجارية
في الأرض . وقال الكرمانى : مسيل الماء ، وتقدم الكلام في الأنهار في أوائل سورة البقرة .
والظاهر أنّ قوله : من كل الثمرات متعلق بجعل . ولما ذكر الأنهار ذكر ما ينشأ عنها وهو
الثمرات ، والزوج هنا الصنف الواحد الذي هو نقيض الاثنين ، يعني أنه حين مد الأرض جعل
ذلك ، ثم تكثرت وتنوعت . وقيل : أراد بالزوجين الأسود والأبيض ، والحلو والحامض ،
والصغير والكبير ، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة . وقال ابن عطية : وهذه الآية تقتضى
أن كل ثمرة موجود فيها نوعان ، فإن اتفق أن يوجد من ثمرة أكثر من نوعين فغير ضار في
معنى الآية . وقال الكرمانى : الزوج واحد ، والزوج اثنان ، ولهذا قيد ليعلم أنّ المراد
بالزوج هنا الفرد لا التثنية ، فيكون أربعاً . وخص اثنين بالذكر ، وإن كان من أجناس
الثمار ما يزيد على ذلك لأنه الأقل ، إذ لا